المجمع 1 (1430/2009) 1-26

"الأدب" كإطار للمعارف في الموروث العربيّ الكلاسيكيّ

مفاهيمه، طبيعته ومضامينه

سمير كتاني

تلخيص:

يعتبر المصطلح "أدب" من أشهر المصطلحات استخدامًا في مجال وصف الإنتاجات الفكريّة والثّقافيّة في الحضارة العربيّة التّي تعود إلى العصور الوسطى، غير أنّه يعدّ كذلك من أكثر المصطلحات تباينًا في المعاني، وخصوصًا في استخداماته الكلاسيكيّة. فهذه الدّراسة تبحث في مفاهيم "الأدب" الكلاسيكيّة الّتي رافقت استخدامه في تلك العصور، وتهدف إلى تسليط الضّوء على معانيه القديمة، التّي تقودنا إلى الحديث عن ظواهر وقضايا حضاريّة مختلفة، تتمحور جميعًا حول المعاني المتنوّعة للفظة "أدب".

إنّ من شأن البحث في موضوع مفاهيم "الأدب" الكلاسيكيّة أن يوضّح بعض مميّزات التّصنيف الأدبيّ لدى أدباء العربيّة القدامى، وأن يسهم في فهم طبيعة المجاميع الأدبيّة الكبرى، الّتي تعدّ من أبرز مؤلّفات "الأدب" الكلاسيكيّ، على ما تنطوي عليه من تنوّع شديد في كلّ من المضامين وأساليب العرض.

ولا غرابة في أن نجد أنّ لفظة "أدب" ومشتقّاتها مستخدمة لدى طبقة المثقّفين الّذين قاموا بوضع كتاباتهم في الحضارة العربيّة – الإسلاميّة، وذلك على اختلاف مشاربهم ومجالات اهتمامهم. فاللّفظة واردة وبصورة جليّة لدى كلّ من المهتمّين بالوصف النّظريّ للحضارة الإنسانيّة (كابن المقفّع ومسكويه وغيرهما)، والمهتمّين بالأدب الجميل Belles- Lettres (كالجاحظ والمبرّد والثّعالبيّ وغيرهم)، وكذلك لدى المهتمّين بالتّربية الإسلاميّة وبالأخلاق (كالغزاليّ وابن تيميّة والبستيّ وغيرهم).

من هنا، جاءت أهمّيّة البحث في مفاهيم وطرق استخدام لفظة "أدب" في التّراث العربيّ الكلاسيكيّ، سيّما وأنّه يفتح آفاقًا واسعة لفهم طبيعة آداب العرب الكلاسيكيّة ومضامينها.

يعتبر "الأدب" الميدان الواسع الّذي يشمل شتّى صنوف المعارف والفنون والممارسات الاجتماعيّة والفكريّة في الحضارة العربيّة – الإسلاميّة. وهذا الاتّساع ينبثق من المفهوم الخاصّ "للأدب" المتّسم بالشّموليّة.

إنّ المصطلح "أدب" – كما يظهر في المؤلّفات العربيّة الكلاسيكيّة– يتّخذ له إطارًا معنويًّا فضفاضًا، يجعله ذا صلة وطيدة بمجالات معرفيّة وفكريّة متنوّعة ومتباينة. وتعدّ لفظة "أدب" من

الألفاظ العربيّة الّتي كثر فيها تغيير للمعنى الأصليّ بفعل التّطوّر الزّمنيّ والفكريّ. فقد كان انتقال العرب من دور البداوة إلى دور المدنيّة أحد العوامل الّتي ساهمت في تطوّر معنى "الأدب"[1].

ويذكر "الرّافعيّ" أنّ مدلولات لفظة "أدب" في العصر الجاهليّ كانت أقلّ اتّساعًا ممّا كانت عليه في العصور الإسلاميّة، وأنّ هذا الاتّساع كان تدريجيًّا، وقد أخذ يكتسب مساحات معنويّة وثقافيّة جديدة انبثقت من طابع الحضارة العربيّة الإسلاميّة الآخذ في التّطوّر[2].

أمّا في عصرنا الرّاهن فإنّ كلمة "أدب" تحمل معنى الكلام الجميل المتوسّم بالمحسّنات البلاغيّة، الّذي يقصد به إلى الجمال الفنّيّ، والّذي من شأنه أن يحدث في النّفس لذّة وتأثيرًا. ولذا، فالكلام الّذي يصحّ اعتباره "أدبًا" هو الكلام الّذي يشتمل على معانٍ تؤثّر في عواطف القارئ أو السّامع. وجودة "الأدب" متعلّقة بمدى ملاءمة الألفاظ للمعاني[3].

وهذا المعنى الحديث للمصطلح "أدب" يتوافق مع اللّفظة الإنجليزيّة Literature ومع اللّفظة الفرنسيّة Belles- Lettres (الّذي يعني "الأدب الجميل") بصورة خاصّة[4].

---

[1]. ضيف، شوقي، **العصر الجاهليّ**، 7.

[2]. انظر: الرّافعيّ، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، 1/ 23– 25.

[3]. انظر: كحّالة، عمر، **الأدب العربيّ في الجاهليّة والإسلام**، 5.

[4]. انظر: سدان، يوسف، **الأدب العربيّ الهازل ونوادر الثّقلاء**، 9 حاشية 1، 24 حاشية 33؛ بلّا، شارل، **دائرة معارف أفرام البستانيّ**، 2/ 62 (مادّة "أدب")؛ بلّا، شارل، "تباين الآراء في مفهوم الأدب عند العرب"، **المورد**، المجلّد 8، العدد 1، 130– 131؛ نالينو، **تاريخ الآداب العربيّة**، 54؛ جيب، هاملتون، **دراسات في حضارة الإسلام**، 304– 309؛ Bonebakker, S. A., "Adab and the Concept of Belles- Lettres", ch. In: 'Abbasid Belles- Lettres, pp 16- 30

هذا، ويكثر استخدام معنى "الأدب" الحديث المشار إليه أعلاه خصوصًا في المؤلّفات الحديثة الّتي تحمل في الغالب عنوان: "تاريخ الأدب". وقد اشتهرت كتب كثيرة في هذا الموضوع، أبرزها: تاريخ الآداب العربيّة لنالينو، وتاريخ الأدب العربيّ لبروكلمان، وتاريخ الأدب العربيّ لطه حسين، وتاريخ الأدب للفاخوريّ، وغير ذلك.

ولعلّنا إذا استعرضْنا أبرز دلالات هذا المصطلح الّتي تظهر في التّراث العربـيّ الفكـريّ الكلاسـيكيّ فقد نحدّد الإطار العامّ للمادّة "الأدبيّة"، إذ أنّ مقالتنا هذه تتنـاول جانبًـا مـن جوانـب الحـضارة العربيّة الكلاسيكيّة، الّتي تنسجم مع دلالات "الأدب".

وتعدّ الدّراسة الّتي قام بها "كارلو نالينو" في استعراض المعاني الكلاسيكيّة للمصطلح "أدب" أبـرز دراسة في هذا المضمار، وقد أصدر كتابه حول تـاريخ الأدب العربـيّ بالإيطاليّـة[5]، وقـد تـرجم إلى العربيّة تحت الاسم "تاريخ آداب العربيّة"[6].

وكما ذكر آنفًا، فقد تباينت المعاني الكلاسيكيّة للفظة "أدب" تباينًا واضحًا، ورغم ذلك، فإنّـه لا يوجد في المعاجم تعريف كـاف وجـامع لهـذه اللّفظـة، وذلـك لأنّهـا كانـت مـن الألفـاظ المألوفـة والشّائعة الاستخدام. فقد كانت المعاجم تهـتمّ بجمـع وشـرح الألفـاظ الغريبـة، ولا تهـتمّ بـإدراج الألفاظ المعروفة الّتي لا تحتاج إلى حفظ أو شرح[7].

ومن أبرز المعاني الّتي اتّصلت بلفظة "الأدب" في المؤلّفات اللّغويّة والأدبيّة القديمة:

---

[5]. وقد تعرّض فيه "نالينو" إلى المفهوم الشّموليّ الواسع الّذي كان للفظة "أدب" خلال العصور الوسطى. انظر: Nallino, C. A., *La Letteratura Araba*, Roma, 1948, pp 1-20 وقد ترجم Charles Pellat الكتاب إلى الفرنسيّة تحت عنوان: La Littérature arabe . وقد أضاف المترجم قائمة مفيدة لمعاني "الأدب" بالمفهوم الكلاسيكيّ لا نجدها في الكتاب الاصليّ.

وقد أورد Bonebakker, S. A تحفّظاته على بعض ما جاء في هذا الكتاب. انظر: Ashtiany, J., et al., The Cambridge History of Arabic Literature (II): Abbasid Belles- Lettres, pp 16- 30. غير أنّ افتراضات "بونيباكر" لم تحظ بقبول غالبيّة الباحثين، بل حتّى إنّها لم تحظ بأيّ اهتمام نقديّ. انظر: J., Sadan, Review of Ashitiany et al. Cambridge History of Arabic Literature, in *I.O.S*, vol. 13, 1993 pp 268-288.

[6]. كان هذا الكتاب في الأساس عبارة عن المحاضرات الّتي ألقاها "نالينو" في جامعة القاهرة. وقد قام "طه حسين" بترجمة الكتاب إلى العربيّة. فقد كان تلميذًا "لنالينو". ويعتبر هذا الكتاب أوّل كتاب تعرّض إلى موضوع معاني "الأدب" الكلاسيكيّة. فقد تعامل "نالينو" مع "الأدب" كمصطلح له دلالات خاصّة.

[7]. انظر: نالينو، كارلو، **تاريخ الآداب العربيّة**، 21– 22.

1. "الظّرف وحسن التّناول"[8]. وقد ورد التّعبير "أدّبته أدْبًا" بمعنى "علّمته رياضة النّفس ومحاسن الأخلاق"[9]. "فالأدب" هنا يتّصل بتربية أخلاقيّة لما يمكن أن يساهم في صقل شخصيّة الإنسان. وقد ذكر هذا المعنى منسوبًا إلى "أبي زيد الأنصاريّ" في قوله: "الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل"[10]. فالتأديب هو التّهذيب. وفي ذلك يروى عن الرّسول قوله: "أدّبني ربّي فأحسن تأديبي"[11]. كما أنّه يروى عنه قوله: "ما منح والد ولده خيرًا من أدب حسن"[12].

فلفظة "أدب" ترد في الكلام مرادفة أحيانًا للفظة "خلق" (وجمعها أخلاق)، بحيث أنّ الواحدة منهما تنوب عن الأخرى، وذلك رغم أنّ بينهما فرقًا ما لا يُدرك لأوّل وهلة[13].

وفي دلالة على انتشار عدّة مفاهيم للفظة "الأدب" في القرون الأربعة الأولى للهجرة، يقول الشّاعر "منصور الفقيه"[14] (ت 306 هـ):

ليس الأديب أخا الرّوا يةِ للنّوادر والغريبْ
ولِشعر شيخِ المُحدثين أبي نواس أو حبيبْ

---

[8]. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، 1/ 206.

[9]. انظر: الفيّوميّ، **المصباح المنير**، 1/ 6.

[10]. انظر: نالينو، **ن.م**، 22؛ التّهانويّ، محمّد عليّ، **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، 1/ 127؛ أمين، أحمد، **ضحى الإسلام**، 1/ 178.

[11]. ابن الأثير، **النّهاية في غريب الحديث والأثر**، 1/ 3؛ السّيوطيّ، **الجامع الصّغير**، (310)؛ العجلوني، إسماعيل بن محمّد، **كشف الخفاء**، 1/ 72 رقم 164؛ ضيف، شوقي، **العصر الجاهليّ**، 7؛ الصّقليّ، ابن ظفر، **سلوان المطاع**، ة165 بلفظ: "إنّ الله أدّبني.."؛ السّيوطيّ، **الجامع الصّغير**، 1/ 51.

[12]. انظر: القرطبيّ، **بهجة المجالس**، 1/ 109.

[13]. الجابريّ، محمّد، **العقل الأخلاقيّ العربيّ**، 31.

[14]. هو فقيه مصريّ، أخذ الفقه عن أصحاب الشّافعيّ، له مصنّفات في مذهب الشّافعيّة. وله شعر استحسنه المؤرّخون كثيرًا. قيل إنّه سكن "الرّملة" فترة من الزّمن. انظر: ابن خلّكان، **وفيّات الأعيان**، 3/ 146–147؛ الحمويّ، **معجم الأدباء**، 1/ 317؛ ابن الجوزيّ، **المنتظم**، 6/ 152.

بـل ذو الـتّفضّـل والـمـرو ءةِ والعفـافِ هو الأديبُ[15]

ففي الأبيات الواردة أعلاه ينكر الشّاعر المواصفات المألوفة في عصره للإنسان الأديـب، وهـي حفظ ورواية الشّعر والنّوادر وغريب الأخبار، ويحدّد "الأدب" بأنّـه الأخـلاق الحـسنة الّـتي تقوم على التّفضّل والمروءة والعفاف.

وقد كثر استخدام اللّفظة بمعنى "الظّرف" خصوصًا بعد تمدّن النّاس، إذ شـغف كـثير مـنهم بالمنادمة والمجالسة، وصـار لـذلك سـلوكيّات خاصّـة[16]. وحتّـى إنّ الوشّـاء قـد جمـع بـين "الظّريف" و "الأديب" للدّلالة على الشّخص الّـذي يقـوم بالمنادمـة، فيعـدّد الخـصال الّـتي ينبغي أن تتوافر فيه، مثل "النّظر في أفانين الآداب، وقراءة الكتب والآثار، ورواية الأخبـار والأشـعار"[17]، وكـذلك "حفـظ حكايـات ومـضحكات كـثيرة ونـوادر بديعـة، ولعـب النّـرد والشّطرنج، وحفظ القرآن ومعرفة شيء من التّفسير، والإلمام بطرف من كلّ بـاب مـن أبـواب الفقه وعلم الشّريعة، ومعرفة سير الملوك"[18]، وهي فنون خاصّة بالأدباء كما نعلم.

ولهذا يرى كلّ من "عمر رضا كحّالة" و "مصطفى صادق الرّافعـيّ" أنّ كلمـة "أدب" كانـت تطلق خلال العصر العبّاسيّ وما بعده على ما يقوم به المنادم للملوك والسّلاطين مـن حـديث ممتع، وخدمة لهم، وما يتّصل بذلك من مهارات للصّيد والغناء والسّمر[19].

---

[15]. القرطبيّ، **بهجة المجالس**، 1/ 111؛ الحمويّ، **معجم الأدباء**، 11/ 198.

[16]. نالينو، **ن.م**، 36– 38.

[17]. الوشّاء، **الظّرف والظّرفاء**، 6– 11.

[18]. ابن وشمكير، قابوس، **قابوس نامه**، ضمن: دمج، محمّد، **مرايا الأمراء**، 390.

[19]. كحّالة، عمر، **الأدب العربيّ في الجاهليّة والإسلام**، 7. وانظر أيضًا: الرّافعيّ، **تاريخ آداب العرب**، 1/ 26–27.

2. "السّنّة والطّريقة". والمقصود بذلك طريقة التّصرّف والعمل الّتي سنّها الأوّلون، فصارت منهاجًا لمن بعدهم[20]. ويدخل ضمن هذه "السّنّة أو الطّريقة" كلّ العادات والتّقاليد والقيم الّتي تعتبر من الواجبات الملزمة للفرد في المجتمع الجاهليّ[21].

ومن هذا المفهوم، فقد عُدّ الدّين من "السّنن والطّرائق والعادات" الّتي يجدر بالمرء الالتزام بها وعدم الحياد عنها. وفي هذا السّياق يروى عن أعرابيّ قوله في الأدب: "الادب أدب الدّين، وهو داعية إلى التّوفيق، وسبب إلى السّعادة، وزاد من التّقوى، وهو أن تعلم شرائع الإسلام، وأداء الفرائض، وأن تأخذ لنفسك بحظّها من النّافلة، وتزيد ذلك بصحّة النّيّة، وإخلاص النّفس، وحبّ الخير، منافسًا فيه، مبغضً للشّرّ نازعًا عنه، ويكون طلبك للخير، رغبة في ثوابه، ومجانبتك للشّرّ رهبة من عقابه، فتفوز بالثّواب، وتسلم من العقاب، ذلك إذا اعتزلت ركوب الموبقات، وآثرت الحسنات المنجيات"[22].

ومع هذا المعنى تتّفق كلمة "دأب"، وهي تعني "العادة والملازمة". ويرى "نالينو" أنّ أصل كلمة "أدب" هو في الواقع "دأب". وقد وردت كثيرًا في الشّعر الجاهليّ. وجمعه "آداب". واستخدم العرب صيغة الجمع هذه مخفّفة الهمز، ومع مرور الزّمن، اشتقّ العرب منها صيغة المفرد، ولكن دون الانتباه إلى ترتيب الأحرف، فصار المفرد كلمة "أدب"[23].

---

[20]. نالينو، **ن.م**، 24.

[21]. انظر: بلّا، شارل، **تاريخ اللّغة والآداب العربيّة**، 159– 160. وقد ورد هذا المعنى في الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ، ومن ذلك بيت للبيد بن ربيعة في معلّقته:

من معشر سنّت لهم آباؤهم ولكلّ قوم سنّة وإمامها

وفيه يتباهى لبيد بالخصال الحسنة الّتي ورثها عن قومه، ويذكر أنّ الشّرف متأصّل فيهم. انظر: التّبريزيّ، الخطيب، **شرح القصائد العشر**، 257. كما يروى البيت:

كذاك أدّبت حتّى صار من خلقي إنّي وجدت مِلاك الشّيمة الأدبا

[22]. انظر: القرطبيّ، **بهجة المجالس**، 1/ 110– 111.

[23]. انظر: نالينو، **ن.م**، 27– 28.

3. "المعرفة والعلم". والتّأديب هو "الإخبار بشيء ما"، وهو أيضًا: "التّعليم"[24]. ويبدو أنّ استخدام "الأدب " في هذا المعنى قد بدأ في الانتشار خلال العصر الأمويّ، إذ أطلقت كلمة "مؤدّبون" على طائفة من المعلّمين، الّذين كانوا يتولّون مهمّة تعليم أولاد الخلفاء كلّ ما يتعلّق بالثّقافة والشّعر والبلاغة والقرآن والحديث وأخبار العرب وحكمهم. وقد اشتهرت في التّراث العربيّ (والعربيّ – الفارسيّ) وصايا الملوك والخلفاء والأمراء لمؤدّبي أولادهم، تتضمّن طلبات بتثقيفهم من جهة، وإحسان تربيتهم من جهة أخرى، كما وردت في ذلك أقوال جرت مجرى الأمثال[25].

ويميّز "التّهانويّ" بين كلّ من "التّعليم" و "التّأديب"، فيقول: "والفرق بينه (أي بين التّأديب) وبين التّعليم أنّ التّأديب يتعلّق بالعادات، والتّعليم يتعلّق بالشّرعيّات"[26]. وهذا التّمييز بين "علم الدّين" و "علم الأدب"، وفق محمّد الجابريّ، ينسجم مع الميل القويّ في التّراث الإسلاميّ إلى الفصل والتّمييز بين علم الدّين وعلم الأدب[27].

---

[24]. انظر: نالينو، **ن.م**، 26– 27؛ الرّافعيّ، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، 1/ 24؛ ضيف، شوقي، **العصر الجاهليّ**، 8– 10؛ الشّايب، أحمد، **أصول النّقد الأدبيّ**، 6– 7؛ الجابريّ، محمّد، **العقل الأخلاقيّ العربيّ**، 42– 45.

[25]. انظر مثلاً: ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، 2/ 182– 184؛ ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، 2/ 242– 243. وانظر أيضًا: أمين، أحمد، **ضحى الإسلام**، 1/ 178. ونمثّل لما ورد في ذلك من أقوال بما يلي: "قالت الحكماء: من أدّب ولده صغيرًا سرّ به كبيرًا"، "ما أشدّ فطام الكبير، وأعسر رياضة الهرم". انظر: ابن عبد ربّه، **ن.م**، 2/ 242. ومن وصايا الأمراء لمؤدّبي أولادهم: "قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصّمد مؤدّب ولده: ليكن إصلاحك بنيّ إصلاحك نفسك، فإنّ عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح ما استقبحت. وعلّمهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وتهدّدهم بي وأدّبهم دوني، وكن لهم كالطّبيب الّذي لا يعجل بالدّواء حتّى يعرف الدّاء. ولا تتّكلنّ على عذر منّي، فإنّي قد اتّكلت على كفاية منك". انظر: ابن قتيبة، **ن.م**، 2/ 182.

[26]. التّهانويّ، **جامع مصطلحات العلوم**، 128/1.

[27]. الجابريّ، محمّد، **العقل الأخلاقيّ العربيّ**، 47.

ففي مقدّمة كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة (276 هـ) يشير المؤلّف إلى أنّ كتابه هذا (وليس هذا الكتاب فقط، حيث نجد أنّ كتاب أدب الكاتب يبتدىء بخطبة فيها مثل هذا الكلام[28]) معدّ "لغفل التّأدّب"، وأنّه يشتمل على "لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض، وحلية "الأدب"، وأثمار طول النّظر، والمتخيّر من كلام البلغاء، وفطن الشّعراء، وسير الملوك، وآثار السّلف"[29].

وفي هذا المعنى، يشير "المبرّد" (285 هـ) في مقدّمة كتابه "الكامل" إلى أنّه وضعه مشتملاً على "ضروب من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة رشيقة، ورسالة بليغة"[30].

ومن هنا صار استخدام "الأدب" مقابلاً لكلمة "العلم" من جهة، وهو ما يتناول مجال "علوم الشّريعة الإسلاميّة"، وكذلك مشتملاً لمعاني هذه الكلمة من جهة أخرى، فالمؤدّب هو الّذي يتولّى تعليم الشّعر والأخبار لأبناء الطّبقة الأرستقراطيّة خاصّة[31]، وهي مضامين ذات صلّة وطيدة بعلوم الدّين والشّريعة والأخلاق.

---

[28]. جاء في خطبة كتابه: "أمّا بعد حمد الله بجميع محامده،.. فإنّي رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيّرين، ولأهله كارهين". وهو يعني بـ "أهل الأدب" المشتغلين في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة القديمة، كالشّعر وعلم النّسب والنّحو والبلاغة والعروض ، إضافة إلى المشتغلين بتفسير القرآن والحديث والفقه. ويوجّه "ابن قتيبة" في صدر كتابه "أدب الكاتب" نقدًا لاذعًا لحال هؤلاء الّذين عدّهم "أهل الأدب"، إذ يقول: "أمّا النّاشئ منهم فراغب عن التّعليم، والشّادي تارك للازدياد، والمتأدّب في عنفوان الشّباب ناسٍ أو متناسٍ، ليدخل في جملة المجدودين، ويخرج عن جملة المحدودين..". انظر: ابن قتيبة، **أدب الكاتب**، 9 وما بعدها.

[29]. انظر: ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، 1/ 43.

[30]. انظر: المبرّد، **الكامل في اللّغة والأدب**، 5.

[31]. حسين، طه، **من تاريخ الأدب العربيّ**، 1/ 26؛ ضيف، شوقي، **ن.م**، 8.

وفي هذا السّياق، فقد ارتكز علماء الشّريعة والدّين في تطرّقهم إلى أهمّيّة "الأدب" وعلومه في مؤلّفاتهم على أنّه يساهم في تفسير القرآن والحديث، ويساعد في فهم الشّريعة وأصول الدّين وعلومه[32].

4. "الأخذ من كلّ شيء بطرف"[33]. وهذا المعنى يتوافق مع المفهوم الشّموليّ الكلاسيكيّ للفظة "الأدب"، وهو المفهوم الّذي تعبّر عنه المؤلّفات "الأدبيّة" العديدة، سواء بمضامينها المتميّزة بالتّنوّع والتّباين، أو بعناوينها المعبّرة عن هذا المفهوم، كما سنفصّل فيما يلي.

وفي هذا السّياق يقول "ابن خلدون" نقلاً عن اللّغويّين[34] في تعريف "الأدب": "هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كلّ علم بطرف، يريدون من علوم اللّسان أو العلوم الشّرعيّة من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلاّ ما ذهب إليه المتأخّرون عند كلفهم بصناعة البديع من التّورية في أشعارهم، وترسّلهم بالاصطلاحات العلميّة"[35]. ثمّ يتابع بعد ذلك في مضيّه إلى هذا المفهوم الشّامل لمجالات الأدب المعرفيّة، فيذكر أنّ أصل هذا الفنّ هو أربعة مصنّفات، وفق ما سمعه من شيوخه في مجالس التّعليم، وهي: "أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتّبيين للجاحظ، وكتاب النّوادر لأبي عليّ القاليّ البغداديّ"، وأنّ ما سوى هذه المصنّفات ما هو إلاّ "تبع لها وفروع عنها"[36].

---

[32]. انظر: نالينو، **ن.م**، 45– 49. وهو يستعرض بعض آراء العلماء في الأدب وعلومه من هذه النّاحية. فيقول إنّ الغزاليّ يذكر أنّ النّحو عبارة عن آلة لفهم كتاب الله. وابن خلدون يرى أنّ النّظر في القرآن والحديث يجب أن يتقدّمه علم اللّسان، الّذي يشمل النّحو والبيان والآداب. أمّا البستيّ فقد أفرد بابًا للحثّ على تعلّم الأدب ولزوم الفصاحة، لأنّ في ذلك منفعة للمسلم الّذي يريد أن يطّلع على حقيقة الدّين. وهو يستشهد بعلماء ومؤلّفين آخرين.

[33]. أمين، أحمد، **ضحى الإسلام**، 178/1.

[34]. ويطلق عليهم "أهل اللّسان"، ولعلّه يعني البلغاء وأصحاب المعاجم والمؤلّفات اللّغويّة الّذين وصلته مصنّفاتهم.

[35]. ابن خلدون، **المقدّمة**، 2/ 257.

[36]. ابن خلدون، **ن.م**، 2/ 257.

ويتطرّق "ابن خلدون" إلى ما كانت عليه فنون "الأدب" قبل عصره، فيذكر أنّها كانت تشمل الغناء، كفنّ منبثق من الشّعر، لأنّ الغناء تلحين للشّعر كما يرى، مشيرًا بذلك إلى وضع كتاب "الأغاني" للأصفهانيّ كأحد المصنّفات التّابعة للأدب، خصوصًا وأنّه، كما يقول، يضمّ أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيّامهم[37].

ولذلك فإنّ لفظة "الأدب" استخدمت في معنى الأحاديث المفيدة والمسلّية، فمن قول الأدباء في هذا اللّفظة: "مقطّعات الأدب قُراضات الذّهب"[38].

فمن المجالات الّتي يجب أن يؤخذ بها الصّبيان في التّربية والتّعليم، وفق ما ينقله لنا "العامريّ": تعليمهم الرّماية، والكتابة، والسّباحة، واحترام الكبير، والاستئذان، وغير ذلك من الأمور الأخلاقيّة والسّلوكيّة العمليّة[39].

ورغم أنّ العامريّ يمثّل بالنّسبة إلينا نشاط الفلاسفة والعقلانيّين من "أدباء" القرون الوسطى، فإنّنا نلاحظ توافقًا يكاد يكون تامًّا مع التّيّار الإسلاميّ– الأخلاقيّ الّذي يمثّله لنا العلماء أو الفقهاء. فالأحاديث النّبويّة الّتي ترد في مختلف المصادر الدّينيّة — الأخلاقيّة والأدبيّة تتطابق إلى حدّ كبير مع القول الّذي أوردناه آنفًا في وجوب تعليم الصّبيان السّباحة والرّماية، والآداب الأخرى. فقد روي عن النّبيّ ﷺ أحاديث عديدة، في ذلك، أشهرها: "علّموا أولادكم السّباحة والرّماية وركوب الخيل"[40].

هذا، وقد اتّسعت كلمة "أدب" لتشمل أحيانًا المعارف غير الدّينيّة الّتي من شأنها أن ترقى بالإنسان ثقافيًّا واجتماعيًّا[41]. فقد ورد على لسان "الحسن بن سهل" أنّ الآداب عشرة

---

[37]. **ن.م**، 2/ 257.

[38]. الحصريّ، **زهر الآداب**، 1/ 193.

[39]. العامريّ، **السّعادة والإسعاد**، 370– 373.

[40]. انظر: ابن أبي الدّنيا، **النّفقة على العيال**، 33 (حديث رقم 394) بلفظ: "علموا أولادكم العوم والرماية ونعم لهو المرأة المغزل".

[41]. نالينو، **ن.م**، 33– 35؛ ضيف، شوقي، **ن.م**، 9.

أصناف، وقام بتقسيمها حسب أصولها وطبيعتها[42]. أمّا "إخوان الصّفا" فقد اعتبروا الأدب أحد أصناف العلوم الّتي تطلب للتّكسّب[43].

وفي هذا الإطار، فقد اكتسبت ممارسات من يضطلع بفنّ "الأدب" دوائر معرفيّة واسعة، وخصوصًا لدى ازدهار منصب الكاتب[44] في الدّولة الأمويّة والعبّاسيّة، إذ أصبح الكاتب (وهو في الغالب ينحدر من أصول فارسيّة) يكتب في مجالات من شأنها أن تهمّ الوالي أو الحاكم الّذي يكتب له، وبذا فقد أصبحت البراعة "الأدبيّة" عبارة عن "مهارة كتابة رسائل في موضوعات غير تقليديّة وفق طلب الولاة"[45].

وفي العصور التّالية صارت كلمة "أدب"جزءًا من عناوين بعض المؤلّفات في المجالات المعرفيّة المختلفة، أو اسمًا لفصول أو أبواب بعض آخر[46].

---

[42]. يقول: "الآداب عشرة، فثلاثة شهرجانيّة، وثلاثة أنوشروانيّة، وثلاثة عربيّة، وواحدة أربت عليهنّ. فأمّا الشّهرجانيّة فضرب العود، ولعب الشّطرنج، ولعب الصّوالج. وأمّا الأنوشروانيّة فالطّبّ والهندسة والفروسيّة. وأمّا العربيّة فالشّعر، والنّسب، وأيّام النّاس. وأمّا الواحدة الّتي أربت عليهنّ فمقطّعات الحديث والسّمر وما يتلقّاه النّاس بينهم في المجالس". انظر: الحصريّ، **زهر الآداب**، 1/ 193. وانظر أيضًا: أمين، أحمد، **ضحى الإسلام**، 1/ 178– 179.

[43]. ورد في الرّسالة السّابعة أنّ العلوم الّتي يتعاطاها النّاس ثلاثة أجناس: "فمنها الرّياضيّة.. وهي علم الآداب الّتي وضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الدّنيا، وهي تسعة أنواع". وهي: "علم الكتابة والقراءة، وعلم اللّغة والنّحو، وعلم الحساب والمعاملات، وعلم الشّعر والعروض، وعلم الرّجز والفأل، وعلم السّحر والعزائم والكيمياء والحيل، وعلم الحرف والصّنائع، وعلم البيع والشّراء والتّجارات والحرث والنّسل، وعلم السّير والأخبار". انظر: **رسائل إخوان الصّفا**، 1/ 266– 267.

[44]. المقصود بالكاتب هو ذلك المنصب الرّسميّ الّذي يضطلع به من يعمل في السّلك الإداريّ في الدّولة أو البلاط. وقد خصّصت رسائل ومؤلّفات كاملة للحديث عن المنصب وإشكالات العمل فيه، منها: رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب، وذمّ أخلاق الكتّاب للجاحظ، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وأدب الكتّاب للصّوليّ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشنديّ، وكثير غيرها.

[45]. انظر: Y. Essid, *A Critique of The Origins Islamic Economic Thought*, 18- 19

[46]. مثل "الأدب الصّغير" و "الأدب الكبير" لابن المقفّع، و"أدب الكاتب" لابن قتيبة، و "أدب النّديم" لكشاجم، و"كتاب الأدب" لابن المعتزّ، "الكامل في اللّغة والأدب" للمبرّد، و"زهر الآداب" للحصريّ، وغيرها الكثير.

ويحدّد "القلقشنديّ" (821/ 1418) المجالات الّتي تخصّ "علم الأدب"، فيذكر أنّ هذا العلم ينقسم إلى عشرة "علوم"، وهي: علم اللّغة، وعلم التّصريف، وعلم النّحو، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وعلم العروض، وعلم القوافي، وعلم قوانين الخطّ، وعلم قوانين القراءة[47]. و"القلقشنديّ" يتركّز هنا في المجال المعرفيّ التّعليميّ "للأدب"، وهو أحد معاني المصطلح البارزة، حيث يتطرّق إلى الأمور الّتي يتعلّمها "طالب الأدب". إلاّ أنّ "القلقشنديّ" لا يمضي قدمًا في تعريف فروع علم الأدب الآنفة الذّكر، بل يكتفي بذكر نماذج لمصنّفات تدخل في كلّ فرع[48].

ويقوم "القنّوجيّ" (1357 هـ) بعمل مشابه في كتابه "أبجد العلوم"، حيث يقسم "الأدب" إلى أقسام عدّة، مستعرضًا في ذلك آراء سابقيه، وهي أقسام تتشابه إلى حدّ كبير مع الأقسام الّتي وضعها "القلقشنديّ"[49].

وترى "فدوى دوغلاس" أنّه يجدر التّمعّن في مضامين المصنّفات الأدبيّة المندرجة تحت أدب "الأدب"، وليس فقط الحكم عليه وفق عناوينها، أو وفق تسمية أبوابها أو فصولها. فهذا الأمر من شأنه التّمييز بجلاء بين معاني "الأدب" أي الموادّ النّصّيّة المتنوّعة المضامين، وبين معاني المصطلح ذاته في مجال "الأدب الجميل" Literature ، وأنّه من المفيد التمييز بين "الأديب" الّذي يشكّل ويصوغ "الأدب" وفق مفاهيمه وذوقه، وبين "الأدب" نفسه[50].

وتستشهد "مالطي" بكتاب "عيون الأخبار" "لابن قتيبة" كمثال نموذجيّ للتّصنيف في أدب "الأدب"، فتشير إلى أنّ تركيبة أحد أبواب الفصل الأوّل، وهو باب "السّرّ وكتمانه

---

[47]. انظر: القلقشنديّ، **صبح الأعشى**، 1/ 538– 543.

[48]. فيذكر ضمن "علم اللّغة" كتبًا مثل: "أدب الكاتب" لابن قتيبة، و"الفصيح" لثعلب، و"المجمل" لابن فارس، وغيرها. وكذلك يفعل في كلّ فرع من فروع "علم الأدب". انظر: **ن.م**.

[49]. انظر: القنّوجيّ، **أبجد العلوم**، 44–47.

[50]. انظر: Malti- Douglas, Fedwa, *Structure of Avarice*, 12.

وإعلانه"، تتكوّن ترتيبيًّا من موادّ من الحديث النّبويّ[51]، ومن الأمثال[52]، والحكم القصيرة[53]، ومن أبيات من الشّعر[54]، ومن حكايات وأخبار نثريّة متنوّعة[55]. وترى "مالطي" أنّ عمليّة تنظيم النّثر والأبيات الشّعريّة تبدو في ظاهر الأمر عشوائيّة، إلاّ أنّه بالإمكان إجراء فحص معمّق للتّوصّل إلى أنّ الوحدات التّعبيريّة الكبيرة، سواء كانت نثرًا أم شعرًا، تتوزّع على نحو متساوٍ على الفصل، وكأنّ المؤلّف لم يشأ أن يرهق القارئ في نوع واحد ومتواصل من الخطاب، ولكنّه في نفس الوقت، أراد تجنّب التّغيير الشّكليّ للأسلوب[56].

5. الدّعوة إلى طعام". وهو مشتقّ من المأدبة، أي الوليمة[57]. ومن هذا المعنى استخدمت اللّفظة "مأدبة" بصورة مجازيّة في الحديث: "إنّ هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلّموا من مأدبته".

كما أنّ "الأدب" ذو صلة بـ "الأدْب"، وهو الدّعاء، ومن هذا المعنى سمّيت المأدبة بهذا الاسم، نظرًا إلى أنّها تتضمّن دعوة النّاس إلى الطّعام[58].

---

[51]. يستهلّ "ابن قتيبة" هذا الباب بحديث: "استعينوا على الحوائج بالكتمان، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود". انظر: **عيون الأخبار**، 1/ 96.

[52]. ويورد في ذلك قولهم: "سرّك في دمك"، وهو قول نسبه إلى "الحكماء". انظر: **ن.م**، 1/ 96.

[53]. ويورد قولاً مرويًّا عن "العرب": "من ارتاد لسرّه موضعًا فقد أذاعه". انظر: **ن.م**، 1/ 96.

[54]. من ذلك:

إذا متّ فادفنّي إلى أصل كرمة — تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنّني في الفلاة فإنّني — أخاف وراء الموت أن لا أذوقها

انظر: **ن.م**، 1/ 96 وما بعدها.

[55]. كالخبر الّذي يرويه، بأنّه "قيل لأعرابيّ: كيف كتمانك للسّرّ؟ قال: ما قلبي له إلاّ قبر. انظر: **ن.م**، 1/ 98.

[56]. *Ibid*, 12- 13.

[57]. نالينو، **ن.م**، 28؛ ضيف، شوقي، **ن.م**، 7.

[58]. ابن منظور، **لسان العرب**، 1/ 206– 207.

ويستخدم "الأدْب" بمعنى جمع النّاس للمشاورة في أمر ما، حيث ورد التّعبير: "إيدِبْ جيرانك لتشاورهم"[59].

وإلى هذا المعنى ذهب الشّاعر الجاهليّ "طرفة بن العبد" في شعره:

نحنُ في المشتاةِ ندعو الجفَلى لا نرى الآدبَ فينا ينتقر[60]

6. "البلاغة والفصاحة". و"الأديب" وفق هذا المعنى "للأدب" هو من يملك المقدرة على تقليب وجوه الكلام، دون لحن أو عيّ. يقول "البستيّ" (354 هـ) في معرض حديثه عن فضيلة الفصاحة وتعلّم "الأدب": الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرّجل، وأحسن إزار يتّزر به العاقل، والأدب صاحب في الغربة، ومؤنس في القلّة، ورفعة في المجالس، وزين في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل على المروءة. ومن استفاد "الأدب" في حداثته انتفع به في كبره، لأنّ من غرس فسيلاً يوشك أن يأكل رُطَبها، وما يستوي عند أولي النّهى، ولا يكون سيّان عند ذوي الحجى رجلان: أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن"[61].

وقد وردت في مصنّفات "الأدب" أبيات شعريّة يظهر فيها معنى "الأدب" الآنف الذّكر، فمن ذلك:

أدب المرء كلحم ودمِ ما حواه رجل إلاّ صلح
لو وزنتم رجلاً ذا أدب بألوف من ذوي الجهل رجح[62]

وكذلك:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادته أو نقصه في التّكلّم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلاّ صورة اللّحم والدّم[63]

وكذلك:

---

[59]. الزّمخشريّ، **أساس البلاغة**، 13.

[60]. انظر: **لسان العرب**، 1/ 207.

[61]. البستيّ، **روضة العقلاء**، 206.

[62]. **ن.م**، 207.

[63]. ابن هذيل، **عين الأدب والسّياسة**، 122.

من خانه نسبٌ فليطلبِ الأدبا ففيه منبهة إن حلّ أو ذهبا
فاطلب لنفسك آدابًا تعزّ بها حتّى تسودَ به من يملك الذّهبا
إنّ الأديبَ ليحية ذكر والدِهِ كالغيث يحيي نداه حيثما انسكبا[64]

7. "السّلوك، والمعارف العامّة، سوى الدّين". وهذا ما يظهر من خلال كلّ من "الأدب الصّغير" و"الأدب الكبير" الّذين وضعهما "ابن المقفّع". يذكر "ابن المقفّع" أنّه أراد جمع حكم ونصائح للقارىء[65]، وأنّ "الأدب" هو عبارة عن قسم من الأخلاق العمليّة[66]. لذلك، فقد كانت لفظة "أدب" أو "آداب" تعني في كتابيه طريقة التّصرّف السّليم[67].

ويتّفق غرض "الأدب" الآنف الذّكر (أن يصل المرء إلى معرفة وممارسة التّصرّف السّليم) مع كتابات الفلاسفة، فينقل العامري عن أفلاطون أنّ "الغرض من الأدب هو أن يصير الإنسان خيّرًا، والخيّر هو الّذي ملك نفسه، والمالك لنفسه هو الّذي يمكنه أن يضبط نفسه عن اللّذّات وعلى الأحزان، وعند الغمّ وعند الفرح، وعند سائر العوارض.."[68]. يظهر لنا "الإنسان الأديب" وفق هذا التّعريف، أنّه من يواجه الحياة بمزيد من الاتّزان والحكمة، فلا يسرف في إبداء ردود فعله، ويبقى عقله ضابطًا له في جميع أفعاله. وهذا المعنى يندرج تحت المفهوم العمليّ "للأدب"، من حيث أنّه سلوك وأداء فعليّ.

---

[64]. ابن هذيل، **ن.م**، 125.

[65]. ابن المقفّع، **الأدب الصّغير والأدب الكبير**، 15.

[66]. يقول "ابن المقفّع" عن علاقة الأدب بالعقل: "وللعقول سجيّات وغرائز تقبل الأدب، وبالأدب تنمى العقول وتزكو". ويقول عن علاقة الأدب بالتّعلّم: "زجلّ الأدب بالمنطق، وجلّ المنطق بالتّعلّم. ليس منه حرف من حروف معجمه، ولا اسم من أنواع أسمائه إلاّ وهو مرويّ، متعلّم، مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب". ويقسم "العامريّ" الأدب إلى قسمين؛ فعليّ وعمليّ. ويرى أنّ أرسطوطاليس يسمّي الأدب الفعليّ "التّعقّل"، وأنّ أفلاطون يسمّيه "الحكمة". انظر: **السّعادة والإسعاد**، 351.

[67]. انظر: ابن المقفّع، **الأدب الصّغير والأدب الكبير**، 12– 13؛ نالينو، **ن.م**، 29– 32.

[68]. انظر: العامريّ، **السّعادة والإسعاد**، 354.

8. ومن هنا فإنّ "التّأديب" قد اتّخذ معنى "العقاب"، وذلك إمّا عن طريق توجيه اللّوم والإغلاظ في القول، أو عن طريق الضّرب "التّأديبيّ" غير المبرّح[69].

فقد تناول غير قليل من المصنّفين الّذين تطرّقوا إلى الجوانب التّربويّة لفظة "الأدب" بهذا المعنى، فـ"ابن سحنون" يورد حديثًا عن النّبيّ يذمّ معلّمي الصّبيان، فيقول: "قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: شرار أمّتي معلّمو صبيانهم، أقلّهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين"، ويعلّق عليه مبيّنًا حدّ تأديب المعلّم للصّبيان: "وإنّما ذلك (اعتبار معلّم الصّبيان شرار الأمّة) لأنّه يضربهم إذا غضب، وليس على منافعهم، ولا بأس أن يضربهم على منافعهم، ولا يجاوز "بالأدب"ثلاثًا، إلاّ أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحدًا. ويؤدّبهم على اللّعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأمّا على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثًا"[70]. والأدب هنا هو الضّرب غير المبرّح. كما يورد "ابن سحنون" قولاً "لأهل العلم" في مقدار الضّربات التّأديبيّة الملائم للمذنب، مفاده "أنّ الأدب على قدر الذّنب"[71]. ويناقش "الهيتميّ" نفس القضيّة، مبيّنًا رأيه في ذلك، وهو عدم جواز ضرب الصّبيّ فوق ثلاث[72].

ويورد "العامريّ" – على لسان فلاسفة اليونان، وخصوصًا أفلاطون– أقوالاً في تأديب الصّبيان، من ذلك وجوب إشغالهم بدًا، لأنّ الرّاحة إفساد لهم[73]. وتتعرّض أقوال الفلاسفة

---

[69]. انظر A. Giladi, *Children of Islam*, pp 61- 66.

[70]. انظر: ابن سحنون، رسالة آداب المعلّمين، ضمن: شمس الدّين، عبد الأمير، **الفكر التّربويّ عند ابن سحنون والقابسيّ**، 80.

[71]. **ن.م**، 81.

[72]. انظر: الهيتميّ، **تحرير المقال** ، 83–86.

[73]. العامريّ، **السّعادة والإسعاد**، 363.

هذه كذلك إلى أنواع "الأدب"، وتقسيمه إلى جدّيّ وهازل[74]، وأدب بالقول وآخر بالفعل[75]، وغير ذلك من تقسيمات كلاميّة وعقليّة.

وقيل في التّأديب إنّه نوعان: ما يلزم الإنسان في تأديب ولده، أو فيمن يلزمه تأديبه، وما يلزمه في تأديب نفسه[76].

وكثيرًا ما ترتبط عمليّة التّربية بالضّرب الّذي هو التّأديب، حيث تروى في ذلك أقوال عديدة، مثل: "من أراد أن يغيظ عدوّه، فلا يرفع العصا عن ولده"[77]، و"ضرب الوالد للولد كالسّماد للزّرع"[78].

كما يرى "بروسن" الفيلسوف اليونانيّ وجوب تأديب الولد منذ صغره، فيقول: "وينبغي أن يؤخذ (الولد) بالأدب من صغره، فإنّ الصّغير أسلس قيادًا وأسرع مؤاتاة، ولم تغلب عليه عادة تمنعه من اتّباع ما يراد منه، ولا له عزيمة تصرفه عمّا يؤمر به"[79].

و"ابن خلدون" كذلك يبيّن الحدّ المقبول لعقاب الصّبيان المتعلّمين، وهو "ثلاثة أسواط"، منوّهًا إلى أنّ الشّدّة على المتعلّمين مضرّة بهم، وخصوصًا إذا كانوا صغارًا[80].

---

[74]. يقول: تكون التّربية على الأدب "من المخادعة، وذلك بأن يصوّر الجدّ في صورة الهزل.. وذلك بأن يُصاغ لهم ألغاز يكون حشوها الأدب وظاهرها الكذب..". ويقول في تربية الصّبيان على "الأدب الجدّيّ" بأن يعرف الصّبيان أمور النّظافة، وأن يُحملوا على إلف الأشياء الحسنة، وعلى النّفور من الأمور السّمجة. انظر: **ن.م**، 358– 362.

[75]. يقول: "وكذلك التّأديب يكون بوجهين، أحدهما بالقول والآخر بالفعل، وكلّ واحد من هذين يكون بوجهين، أحدهما أن يحملوا (أي الصّبيان) على القول حتّى يقولوا ويفعلوا، والآخر أن يقال ليسمعوا أو يفعل ليبصروا حتّى يتأدّبوا". انظر: **ن.م**، 359.

[76]. ابن هذيل، **عين الأدب والسّياسة**، 121.

[77]. القرطبيّ، **بهجة المجالس**، 1/ 109. وقد ورد القول منسوبًا إلى "سليمان بن داود".

[78]. القرطبيّ، **ن.م**، 110. وقد نسب القول إلى "لقمان".

[79]. Plessner, Martin, *Der Oikonomikos des Neupythagorees Bryson*, p 182.

[80]. انظر: ابن خلدون، **المقدّمة**، 2/ 241.

إنّ المعنيين الّذين يتّصلان بموضوع دراستنا هـذه مـن معـاني الأدب همـا: النّـوع الأدبـيّ المتعـدّد الفروع، والسّلوك أو الدّعوة إلى مكارم الأخلاق.

إنّ المعنى الأوّل الآنف الذّكر يضع كمًّا هائلاً من المؤلّفات ذات المـضامين المتنوّعـة في عـداد النّـوع الأدبيّ المتّسم بالشّموليّة، ومن ذلك أدب المرايا والأمثال المتـأخّر، وبعـض المؤلّفـات ذات الـصّبغة الدّينيّة الواضحة، الّتي تتّخذ من "الأدب" قاعدة ثقافيّة تنطلق منها. ولقد كـان "الأدب" بمعنـى النّوع الأدبيّ المتعدّد الفروع يدلّ على النّثر غالبًا، فالشّعر مـن حيـث بنيتـه وأغراضـه كـان نوعًـا مستقلاّ. مع أنّ الكتابات النّثرية قد تشتمل على الكثير من الأشعار و المقطوعـات الـشّعريّة، إنّمـا بهدف إعطاء أمثلة نصّيّة أو شواهد من كلام القدماء على الموضوع الّذي تعالجه[81].

كما أنّ الكتابات المنطوية علـى وحكـم ووصـايا ونـصائح عمليّـة للـسّلوك الاجتمـاعيّ والحـضاريّ المنشود، تصبّ في إطار المعنى الثّاني المذكور آنفًا.

لقد انتشرت "آداب" للسّلوك في مجالات مختلفة، كآداب الطّعام والشّراب والمعاملة مـع النّـاس، والتّصرّف في المناسبات المختلفة. وانتشرت هذه الآداب أيضًا بصورة بارزة في المؤلّفات الدّينيّة، إذ تعتمد هذه المؤلّفات على النّزعة الأخلاقيّة. فقد أفردت كتب الحديث فصولاً موسومة بـ "الأدب" تعالج موضوعات تحثّ على مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة وما إلى ذلك[82].

ونجد أنّ "القنوجيّ" (1357 هـ) قد قسّم العلوم بدوره إلى أنواع، مستخدمًا كلمة "آداب" للدّلالـة علـى حيثيّـات هـذه الأنـواع مـن العلـوم، وتعـني لفظـة "آداب" في معـرض تناولـه لهـذه العلـوم السّلوكيّات الخاصّة بمعرفة وممارسة أنواع العلوم المختلفة. فيذكر مـثلاً علـم آداب الأكـل، وعلـم آداب البحث، وعلم آداب السّماع والوجد (أي الموسيقى[83])، وغير ذلك[84].

---

[81]. انظر: سدان، يوسف، **الأدب العربيّ الهازل**، 24– 25.

[82]. انظر مثلاً: "آداب الطّريق"، و "آداب الطّعام" وغيرها من "الآداب" الّتي نجدها في ثنايا المؤلّفات الأخلاقيّة.

[83]. وقد رأى أنّ الاستماع إلى الموسيقى غير محرّم، وهو يوافق بذلك آراء الصّوفيّة كما يقول. انظر: القنوجيّ، **أبجد العلوم**، 2/ 38– 39.

[84]. انظر: **ن.م**، 34– 44.

ومن جملة "الآداب"، أي السّلوكيّات، الّتي تتحدّث عنها مصنّفات "الأدب" الكلاسيكيّة، على سبيل المثال، ما يتعلّق بـ "أدب المتعلّم"، فيقول "الماورديّ" في ذلك: "اعلم أنّ للمتعلّم تملّقًا وتذلّلاً، فإن استعملهما غنم، وإن تركهما حُرم، لأنّ التّملّق للعالم يظهر مكنون عمله، والتّذلّل له سب لإدامة صبره"[85].

أمّا "الغزاليّ" (505/ 1115) فيعدّد ضمن "آداب المتعلّم" "تقديم طهارة النّفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف"، وتقليل اهتمام المتعلّم بالاشتغال بالدّنيا، وعدم تكبّره على العلم وعلى المعلّم، وضرورة النّظر في كلّ فنّ من العلوم المحمودة، وغير ذلك[86]. ولا شكّ أنّ تناول "الغزاليّ" لآداب المتعلّم إنّما يخضع لمذهبه الفكريّ أو التّعليميّ، وهو هنا مذهب ينزع إلى الفلسفة والتّصوّف معًا.

ولقد تعرّض "الماورديّ" كذلك إلى "آداب" أخرى كثيرة، وهو مقسّم بصورة تدلّ بجلاء على أمرين:

1- أنّ مفهوم "الأدب" في الفترة الّتي سبقت عصر "الماورديّ" بقليل، أي في القرن الثّالث، كان قد اتّسع "بما فيه الكفاية" ليكون إطارًا واسعًا لشتّى ضروب التّصنيف المعرفيّ (باستثناء المصنّفات الفقهيّة والمتّصلة بالشّريعة الإسلاميّة بمفهومهما الضّيّق).

2- أنّ استخدام لفظة "أدب" بمعنى "فنّ" أو "ممارسة" كان من الشّهرة والذّيوع، بحيث جاز أن توسم بهذه اللّفظة فصول المؤلّفات والكتب، فأضحت اللّفظة جزءًا من عناوين لها.

واتّساع "الآداب" في المعاني والمضامين اتّساع بيّن، وهو ما حدا بمؤلّف مثل "الماورديّ" لأن يصرّح بأنّ "الآداب مع اختلافها بتنقّل الأحوال وتغيّر العادات لا يمكن استيعابها، ولا يُقدر على حصرها، وإنّما يذكر كلّ إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه، واستحسن بالعرف من عادات دهره"[87].

إنّ كلام "الماورديّ" هذا ينمّ عن أنّ "الآداب" من الكثرة، بحيث أنّه لا يمكن استقصاؤها، كما أنّه لا يمكن لأحد إجادتها كلّها، فيحسن به والحال هذه أن يتمكّن من أكبر قدر منها.

---

[85]. الماورديّ، **أدب الدّنيا والدّين**، 67.

[86]. انظر: الغزاليّ، **إحياء علوم الدّين**، 1/ 62– 69.

[87]. الماورديّ، **أدب الدّنيا والدين**، 347.

لا شكّ أنّ الأدب" إذن، إطار واسع جدًّا، يعتبر منطلقًا لسبر أغوار موضوعات حضاريّة متعدّدة.

و"الأدب" ينسجم – من منطلق طبيعته الشّموليّة– مع التّوجّه الدينيّ – الأخلاقيّ، بحكم أنّه قابل لأن يشكّل تجانسًا كاملاً مع الإسلام والشّريعة، بحكم اشتمال هذين الأخيرين على مبدأ الإصلاح والوعظ.

يتّضح لنا إذن، أنّ من خصائص مؤلّفات "الأدب" الكلاسيكيّة بشكل عامّ:

1. الضّخامة والموسوعيّة، وتتناول هذه الميزة بشكل خاصّ المجاميع الأدبيّة الكبرى، مثل "عيون الأخبار" لابن قتيبة، و"الحيوان" للجاحظ، و"البيان والتّبيين" للجاحظ، و "العقد الفريد" لابن عبد ربّه، و"الأمالي" للقالي، و"الكامل في اللّغة والأدب" للمبرّد، و"الأغاني" للأصفهانيّ، و"زهر الآداب" للحصري، و"نثر الدّرّ" للآبيّ،"وبهجة المجالس" لابن عبد البرّ، "وربيع الأبرار" للزّمخشريّ، و"نشوار المحاضرة" للتّنوخيّ، ومراجع أخرى.
2. الشّموليّة، والاحتواء على مضامين معرفيّة شديدة التّباين، بحيث أنّ المؤلَّف يتضمّن تناقضات أحيانًا، فعلى سبيل المثال، يتناول "ابن قتيبة" في كتابه "عيون الأخبار" موضوع الزّهد وما يتّصل به، متطرّقًا إلى أقوال مؤثّرة في التّهجّد، والبكاء، والموت، إلى جانب أقوال ومأثورات عن أعلام الزّهّاد والعبّاد. ولكنّ هذا الأمر لم يمنع المصنّف من التّطرّق إلى موضوعات أخرى، هي الأبعد عن مثل هذا الموضوع، كموضوع الطّعام والنّوادر حوله، وموضوع النّساء وأخبارهنّ، وما يتّصل بحديث المجون والعشق واللّهو المنهيّ عنه في الإسلام. وكذلك الشّأن في المؤلّفات الأخرى[88]. ولعلّ "ابن قتيبة" نفسه يحلّ إشكاليّة هذا التّناقض في طبيعة المضامين والموادّ الموجودة في المؤلّف "الأدبيّ"، وذلك من خلال مقدّمة كتابه، حيث بيّن أنّه قصد قصدًا إلى التّطرّق إلى أمور الدّين والدّنيا، غير مغفل لأبرز ما يتّصل بكلّ منهما[89].

---

[88]. نلاحظ مثل هذا التّباين بصورة خاصّة في مؤلّفات عدّة، كالعقد الفريد لابن عبد ربّه، و نثر الدّرّ للأبيّ.

[89]. يقول ابن قتيبة: "ولم أر صوابًا أن يكون كتابي هذا وقفًا على طالب الدّنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواصّ النّاس دون عوامّهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم..."، ويقول مدافعًا عن سبب إتيانه بالنّوادر والمزاح والفكاهات: "وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة، وما روي عن الأشراف والأئمّة

المراجع:

1. ابن أبي الدّنيا. **النّفقة على العيال**. تحقيق: عبد الرّحمن خلف. الدّمّام: دار ابن القيّم، 1995.
2. ابن الأثير. **النّهاية في غريب الأثر والحديث**. تحقيق: طاهر أحمد الزّاويّ ومحمود الطّناحيّ، القاهرة: [د.ن]، 1963.
3. ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد. **المقدّمة**. تصحيح: أبو عبد الله السّعيد المندوه، بيروت: مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، د.ت.
4. ابن خلّكان، أبو العباس. **وفيّات الأعيان**. بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، 1997.
5. ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد. **العقد الفريد**. تحقيق: محمّد سعيد العريان. بيروت: دار الفكر، [د.ت].
6. ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله. **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذّاهن والهاجس**. تحقيق: محمّد مرسي الخولي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1982.
7. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. **عيون الأخبار**. بيروت: دار الكتب العلميّة، [د.ت].
8. ابن المقفّع. **الأدب الصّغير والأدب الكبير**. بيروت: دار صادر، [د.ت].
9. ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرّم. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، 1994.

فيهما، فإذا مرّ بك، أيّها المتزمّت، حديث تستخفّه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به. واعلم أنّك إن كنت مستغنيًا عنه بتنسّكك فإنّ غيرك ممّن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إلي، وإنّ الكتاب لم يُعمل لك دون غيرك فيُهيّأ على ظاهر محبّتك، ولو وقع فيه توقّي المتزّمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك". انظر: **عيون الأخبار**، 1/ 42– 52.

10. ابن هذيل. **عين الأدب والسّياسة وزين الحسب والرّياسة**. بيروت: دار الكتب العلميّة، [د.ت].

11. ابن وشمكير، قابوس. **قابوس نامه**، ضمن **مرايا الأمراء**. تحقيق: محمّد دمج. بيروت: مؤسّسة بحسون، 1994.

12. الآبيّ، أبو سعد منصور بن الحسين. **نثر الدّرّ**. دمشق: وزارة الثّقافة، 1997.

13. إخوان الصّفا. **رسالة تداعي الحيوان على الإنسان**. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1980.

14. أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**، القاهرة: مكتبة النّهضة المصريّة، د.ت.

15. البستانيّ، فؤاد أفرام. **دائرة المعارف**– قاموس عامّ لكلّ فنّ ومطلب. بيروت: [د.ن]، 1956- 1969.

16. البستيّ، أبو حاتم محمّد بن حبّان. **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**. صيدا– بيروت: المكتبة العصرية، 2003.

17. بللاّ، شارل. "تباين الآراء في مفهوم الأدب عند العرب"، **المورد**. المجلّد 8، العدد 1، (1979).

18. التّهانويّ، محمّد أعلى بن عليّ. **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**. تحقيق: عليّ دحروج، تعريب: عبد الله الخالدي. بيروت: مكتبة لبنان، 1996.

19. الجابريّ، محمد. **العقل الأخلاقيّ العربيّ: دراسة تحليليّة نقديّة لنظم القيم في الثّقافة العربيّة**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2001.

20. جيب، هاملتون. **دراسات في حضارة الإسلام**. ترجمة: إحسان عبّاس وآخرون. بيروت: دار العلم للملايين، 1974.

21. حسين، طه. **من تاريخ الأدب العربيّ**. بيروت: دار العلم للملايين، 1991.

22. الحصريّ، أبو إسحق إبراهيم بن عليّ. **زهر الآداب وثمر الألباب**. بشرح: صلاح الدّين الهواريّ. صيدا – بيروت: المكتبة العصريّة، 2001.

23. الحمويّ، ياقوت. **معجم الأدباء**. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1413.

24. خان، صدّيق حسن. **أبجد العلوم– الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**. دمشق: وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، 1978.

25. الرّافعيّ، مصطفى صادق. **تاريخ آداب العرب**. المنصورة: مكتبة الإيمان، 1997.

26. الزمّخشريّ، جار الله أبو القاسم. **أساس البلاغة**. بيروت: [د.ن]، 1994.

27. سدان، يوسف. **الأدب العربيّ الهازل ونوادر الثّقلاء**. تل أبيب: جامعة تل أبيب، عكّا: مكتبة السّروجيّ، 1983.

28. السّيوطيّ، جلال الدّين. **الجامع الصّغير في أحاديث البشير النّذير**. [د.م]: دار الكتب العلميّة: [د.ت].

29. الشّايب، أحمد. **أصول النّقد الأدبيّ**. القاهرة: مكتبة النّهضة المصريّة، 1973.

30. شمس الدّين، عبد الأمير. **الفكر التّربويّ عند ابن سحنون والقابسيّ**. بيروت: الشّركة العالميّة للكتاب، 1990.

31. الصّقلّيّ، ابن ظفر. **سلوان المطاع في عدوان الأتباع**. تحقيق: محمّد دمج. بيروت: مؤسّسة عزّ الدّين، 1995.

32. ضيف، شوقي. **العصر الجاهليّ**. مصر: دار المعارف، . [د.ت].

33. العامريّ. **السّعادة والإسعاد في السّيرة الإنسانيّة**. ويسبادن: فرانز شتيلر وبرلاج، 1957.

34. العجلونيّ، إسماعيل بن محمّد. **كشف الخفاء ومزيل الألباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة النّاس**. تحقيق: أحمد القلاش. حلب– دمشق: مكتب التّراث الإسلاميّ، . [د.ت].

35. الغزاليّ، أبو حامد محمّد بن محمّد. **إحياء علوم الدّين**.، بيروت: دار الكتب العلميّة، . [د.ت].

36. الفيّوميّ، أحمد بن محمّد. **المصباح المنير**. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، د.ت.

37. القلقشنديّ، أحمد بن عبد الله. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. شرح: محمّد حسين شمس الدّين. بيروت: دار الكتب العلميّة، . [د.ت].

38. كحّالة، عمر. **الأدب العربيّ في الجاهليّة والإسلام**. دمشق: المطبعة التّعاونيّة، 1972.

39. الماورديّ، عليّ بن محمّد. **أدب الدّنيا والدّين**. تحقيق: محمّد صبّاح. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1987.

40. المبرّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد. **الكامل في اللّغة والأدب**. تحقيق: تغاريد بيضون ونعيم زرزور. دار الكتب العلميّة، بيروت، 1996.

41. نالينو، كارلو. **تاريخ الآداب العربيّة**. [د.م]: دار المعارف، 1970.

42. الهيتميّ، ابن حجر. **تحرير المقال في آداب وحكم وفوائد يحتاج إليها مؤدّبو الأطفال**. تحقيق: محمّد سهل الدّبس. دمشق: دار ابن كثير، 1407 هـ.

43. الوشّاء، أبو الطّيّب محمّد بن أحمد. **الظّرف والظّرفاء**. القاهرة: مطبعة التّقدّم، 1324 هـ.

44. Bonebakker, S., A. "Early Arabic Literature and the Term Adab", *Jerusalim Studies in Arabic and Islam.* 5, (1984), pp 389- 421.

45. Essid, Yassine. *A critique of The origins of Islamic Economic Though.* Leiden. E. J. Brill, Leiden, 1995.

46. Geladi, Avner. *Children of Islam: Concept of Childhood in Medieval Muslim Society.* Oxford, 1992.

47. Malti-Douglas, Fedwa. *The Structure of Avarice*. E. J. Lieden, 1985.

48. Nallino, C. A. *La Letteratura Araba.* Roma, 1948.

49. Plessner, Martin. *Der Oikonomikos des "Bryson" und sein Einfluss auf die islamische Wissenschaf.*, edition und Uebersetzung der erhaltenen Versionen, Heiderberg, 1928.

50. Sadan, J. "Review of Ashtiany et al.", *Israel Oriental Studie.*, vol. 13, (1993), pp. 283 – 288.